دراسة

جلال أمين: هذا ما حدث للثقافة في مصر

جمود الخطاب الديني، محنة اللغة العربية، الانفتاح الاقتصادي خلال حكم السادات، وأزمة الاغتراب التي يعيشها الفنان في العصر الحديث... كلها عوامل يطرحها المفكر الراحل للإجابة عن سؤال: «ماذا حدث للثقافة في مصر» (دار الكرمة ـ القاهرة). الكتاب الذي صدر بعد رحيله، يؤرّخ لقرن من الثقافة للإحاطة بمختلف جوانب الأزمة

هدى عمران

منذ فترة، صدر كتاب للمفكر المصري الراحل وأستاذ الاقتصاد جلال أمين (1935 ــ 2018) بعنوان «ماذا حدث للثقافة في مصر» (دار الكرمة ـ القاهرة)، تضمن عشرة فصول يفسر خلالها أمين عوامل انحدار الثقافة في مصر، أبرزها جمود الخطاب الديني، محنة اللغة العربية، بداية الانفتاح الاقتصادي خلال حكم الرئيس الأسبق محمد أنور السادات، وأزمة الاغتراب التي يعيشها الفنان في العصر الحديث. في مقدمة الكتاب «ماذا حدث منذ مائة عام؟»، ينطلق أمين للتأريخ لقرن من الثقافة المصرية من خلال حدث اعتبره مهماً لمسيرتها. إنّه عام 1914 حين تأسست لجنة التأليف والترجمة والنشر على يد عدد من المثقفين المصريين، الذين يميزهم -وفقاً لأمين- جمعهم بين المعرفة الحميمة بالتراث العربي والإسلامي وبين الاطلاع على الثقافة الغربية الحديثة. ويرى أن جيل مثقفي ما بين الحربين العالميتين (1914- 1945) صنعوا نهضة ثقافية في مختلف أنواع الفنون مقارنةً بمثقفي الأجيال الأحدث الذين -كما يصفهم- هم أقل إبداعاً وفصاحة، وأضعف لغةً، وأبعد عن العقلانية، وأقل ثقة بالنفس ونقّادهم أكثر ميلاً للمجاملة.

في الفصل الأول (ثورة 1952: صعود الآمال ثم انتكاسها)، يتطرق إلى كتابين مهمين حملا عنواناً مشابهاً لكتابه. الأول لطه حسين بعنوان «مستقبل الثقافة في مصر» (1938) دعا فيه حسين إلى الالتفات للإنجازات الحضارية التي حققتها الثقافة الغربية والسير في طريقها. والثاني «في الثقافة المصرية» (1955) للمفكرين محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس. ركّز الكتاب الأخير على موقف المثقف من القضية الاجتماعية وقضية الاستقلال الوطني. ورداً على أنيس والعالم، رأى أمين أن الأدباء غير المنخرطين في المعركة الاجتماعية ليسوا أقل في شيء من تيار الأدب الاشتراكي. يفترض أمين في طرحه أن الانفتاح الاقتصادي في عهد السادات خلق طبقة متوسطة مشوهة وجشعة وسقيمة التطلعات، وأسوأ خُلقاً وأقل إخلاصاً لفكرة الطبقة العاملة، التي نادى بها أنيس والعالم في كتابهما. وقد أطلق على الحقبة الزمنية التي تلت الانفتاح ونتجت عنه اسم «العصر الأميركي»، لأنها تميزت بالتبعية السياسية للولايات المتحدة الأميركية وبخلق نمط استهلاكي في المعيشة.

ومن سمات هذا العصر أيضاً ديمقراطية يوليو المنقوصة التي انتقدها، وقال إنّها كانت سبباً في مجانية التعليم، وخلقت تكدساً في المدارس أضرّ بجودة تدريس اللغة العربية. ثم يعود أمين ويفترض أنّ إصلاحاً تعليمياً على الطريقة الأميركية بدأ من العراق وامتد في الوطن العربي، لتصدير النموذج الغربي في الحياة والتفكير وصناعة دعاية للقيم والنظام الأميركيين. وهذا أضر باللغة العربية التي استُبدلت بالإنكليزية. لكن أمين تجاهل أن التعليم الأميركي في مصر لا يتلقاه سوى شرائح محدودة من المصريين، وهم أبناء الطبقات الثرية.

السمة الأهم للعصر الأميركي حسب أمين هي خلق فجوة اقتصادية بين الطبقات وزيادة معدلات التضخم. وقد دعمتها وأسست ركيزتها سياسات الانفتاح الاقتصادي في السبعينات ثم تزاوج رأس المال والسلطة في عهد مبارك. ويستنتج أمين من ذلك أن السيئ الذي حدث للثقافة المصرية، هو غلبة التفكير المادي وحلول الاهتمامات المادية محلّ الأخلاقية، وهو ما أطلق عليه عصر الاقتصاد، منادياً في الوقت ذاته بحدوث ثورة روحية، قائلاً إن إصلاحاً اقتصادياً ليس حلاً للأزمة الراهنة.

لا يرسم أمين ملامح الثورة الروحية، لكنه يكتفي بتحليل عوامل الأزمة على رأسها تشدد الخطاب الديني، الذي يرجع أسبابه إلى انتشار حركات الإسلام السياسي المتطرفة التي تصاعدت نتيجة الهجرة إلى دول الخليج، واستيراد المذهب الوهابي في تفسير الدين، والحراك الاجتماعي السريع الذي أحدثته التطورات الاقتصادية التالية لـ «ثورة يوليو»، والتغييرات في المراكز النسبية للشرائح الاجتماعية المختلفة، وولادة طموحات مفرطة لدى البعض للصعود الاجتماعي من ناحية، وشعور بالإحباط والإخفاق لدى من عجزوا عن تحقيق ذلك الصعود من جهة أخرى. أضف إلى ذلك حالة التغريب التي صنعها الانفتاح وقبلها النكسة والهزيمة أمام إسرائيل في 1967.

والسبب الأهم لتشدد الخطاب الديني، وفقاً لأمين، هو رخاوة الدولة المصرية في ميدان الاقتصاد وفي مواجهة الفساد وأعدائها الخارجيين، بالإضافة إلى فتح السادات المجال العام أمام الإسلاميين لمواجهة الشيوعيين وتيار اليسار بأكمله الذي كان ضد سياساته الاقتصادية والخارجية، بخاصة سياسة السلام الذي عقده مع إسرائيل.

يدلل أمين على تحول نوعي للخطاب الديني إلى الأسوأ مقارنة بحقبة ما قبل نظام يوليو 52. ويستذكر هنا حين استقبلت مصر عام 1926 الشاعر الهندي طاغور الذي صرّح لجريدة «الأهرام» خلال الزيارة، عن فكرة الأديان. إذ سأل الصحافي طاغور: «ألم تفكر في توحيد المسلمين وغيرهم من أهل الهند من الناحية الدينية، أي أن يتوحد مذهب هؤلاء وأولئك في الدين مثلاً؟» جاء رد طاغور: «كلا ما فكرت في ذلك، وما ينبغي أن يفكر فيه أحد... وهو إن تحقق، أضر أكثر مما ينفع، ولا يعود على الإنسانية إلا بالخسارة الشديدة، فأنتما تعلمان أن الدين هو لون من ألوان التعبير الإنساني عن العواطف والميول والمثل العليا، وإن هذا اللون من ألوان التعبير متصل أشد الاتصال بأمزجة الأفراد والأمم (....) فمن الثروة للإنسانية أن تحتفظ بهذه الألوان المختلفة التي عبرت بها الأمم والشعوب عن عواطفها وميولها إلى الحق الذي لا حد له، ومن يحاول محو دين من هذه الأديان إنما يبدد نوعاً من الثروة التي تحرص عليها الإنسانية». يرى أمين أن الزيارة بحد ذاتها دليل على انفتاح الخطاب الديني وقبوله التنوع في ذلك العصر، لكنّه تجاهلَ سؤال الصحافي الذي يعكس جانباً من التعصب الديني ورغبةً في فرض دين أو مذهب واحد. في السياق نفسه، يقبل أمين الخطابات والمواعظ السلفية السمحة والمبتسمة ويضعها ضمن شروط إصلاح الخطاب الديني الذي رهن مسؤوليته للطبقة الوسطى، إلى جانب تلبية الحاجات الأساسية، وتحقيق العدل في معاملة الناس، والشعور بالاطمئنان لناحية المستقبل، والارتقاء بحالة التعليم.

يبدو جلال أمين في هذا الكتاب مرتبكاً حيال أسباب المشكلة وحلولها، متناقضاً ومكرراً في مواضع كثيرة. ربما يعود ذلك إلى أن فصول الكتاب كانت مقالات منفصلة نشرت في الصحف في فترات متقطعة، فأخفق أمين من حيث وحدة الموضوع وتسلسله، ووضع التطورات التي مر بها المجتمع سواء في الفنون أو استخدام اللغة العامية المصرية في سلة واحدة مع عوامل انحدار ثقافي، مقارناً دائماً بين الحاضر وبين زمن اعتبره ذهبياً كأن الوقوف عند هذه النقطة هو قمة التطور. لم يتطرق أمين مثلاً إلى الروح المحافظة التي تحكم مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع، وما يتزامن معها من تخلف سياسي واقتصادي. ولم يتطرق أيضاً إلى تاريخ مصر الحديث في قلب المنطقة العربية ككل خلال الحقبة الحديثة التي امتدت منذ ما قبل الاستعمار، ولم يقف على أهمية الدين كحامل للحركة الوطنية والسياسية في هذه المجتمعات خلال أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين وإلى الآن. وبالغ في التغنّي بعصر ذهبي للثقافة قد لا يكون أكثر من موجة من موجات التحرر في حقبة طويلة لم يكتب لها النضوج والاستمرار لأنها لم تجد مقوماتها الاقتصادية والسياسية. وأرجع كل مشكلة التدهور الثقافي إلى نظام يوليو 52 وما تلاه. وقال إنّ إصلاح الخطاب الديني يحدث في حمله «مواعظ مبتسمة». ورغم أن أمين أستاذ للاقتصاد، إلا أنه عظّم من العوامل الثقافية باعتبارها حلاً لمشكلات المجتمع، وبدا متردداً حيال الحديث عن حل اقتصادي واضح، معتبراً أن الإصلاح من الداخل هو أداة التغيير، رغم عطب الداخل بأكمله.

جلال أمين
ماذا حدث للثقافة في مصر؟

الانفتاح الاقتصادي في عهد السادات خلق طبقة متوسطة مشوّهة وجشعة

لمحات

الرجل الذي حدق في السماء

إيرنان ريبيرا ليتيلير

بعد «زهرة الحب» لأليخاندرو زامبرا، اختارت «دار الساقي» رواية أخرى من الأدب التشيلي المعاصر هي «الرجل الذي حدّق في السماء» لإيرنان ريبيرا ليتيلير التي صدرت بالعربية أخيراً (ترجمة: محمد مصطفى). تتبع الرواية ثلاث شخصيات تعيش تحت سماء تشيلي: رجل يطيل النظر في السماء، ورسّام، إلى جانب بهلوانة تؤدي عروضها في الشارع. كأنما الثلاثة يحاولون ترميم تشيلي الرازحة تحت وطأة الفساد والآفات الأخرى.

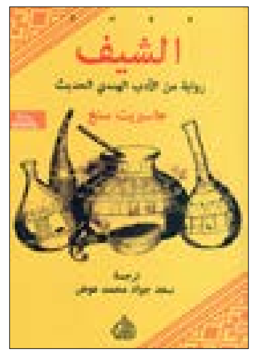

جاسبريت سنغ

«الشيف» (2010) هي الباكورة الروائية للكاتب الهندي جاسبريت سنغ، التي صدرت ترجمتها العربية عن «دار الرافدين» (ترجمة: سعد جواد محمد عوض). تدور الرواية في كشمير وعنها، تلك المنطقة المضطربة التي انسلخت عن الهند، وبقيت منطقة صراع دائم بين الهند وباكستان. من خلال المونولوجات الداخلية، يقدّم الراوي بأسلوب شاعري تاريخاً مضطرباً ودموياً لكشمير، لصراعاتها، وللآمال الفردية المحطّمة فيها.

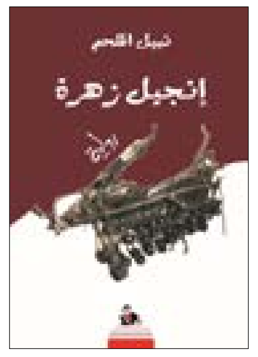

نبيل الملحم

«في هذا الشفق الأبيض... كنت عازماً على خلق معنى ما، لا لشيء سوى لاستعادة روح اللعب»، يقول يوسف بطل رواية «إنجيل زهرة» (الريس) لنبيل الملحم.

بين دمشق والقاهرة وبغداد ومدن أوروبية أخرى، يكتب الروائي السوري أحداث روايته السابعة التي تدور حول بطله يوسف بشخصيته العبثيّة والثرثارة، إلى جانب سلمى التي تجد نفسها مستسلمة للاستماع إليه، وإلى حديثه المتواصل.

أوليفييه بوريول
سهولة
الفن الفرنسي للنجاح بلا جهد

أوليفييه بوريول

يقترح أوليفييه بوريول سبلاً مختلفة للدخول إلى أسرار السهولة على الطريقة الفرنسية. في «سهولة الفن الفرنسي للنجاح بلا جهد» («المركز الثقافي العربي» ـ ترجمة: معن عاقل)، يقدّم الباحث والفيلسوف الفرنسي السهولة عبر ميادين متعدّدة منها الرياضة والحب والطهي والفن.

يقدّم أمثلة حيّة لهذا النموذج الفرنسي في تخطي الصعوبات بأقل جهد ممكن، من بينها تجارب لفلاسفة وكتاب وشخصيات روائيّة.

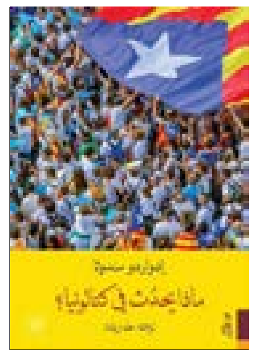

إدواردو مندوثا

يحاول إدواردو مندوثا تقديم قراءته عن التطوّرات والأحداث الأخيرة في كتالونيا. ينطلق الروائي الإسباني من سؤال يحمل عنوان الكتاب «ماذا يحدث في كتالونيا؟» («دار مسعى»/ كندا ـ ترجمة: طه زيادة) للإجابة عن تساؤلات كثيرة تتعلّق بسيطرة النزعة النفصالية للحركات اليسارية في البلاد، لكن هذا النص الطويل الذي يكتبه مندوثا انطلاقاً من رؤيته إلى الأحداث الأقسى منذ انتهاء حكم فرانكو عام 1975، يتخطى كتالونيا إلى الوضع في إسبانيا بشكل عام.

السينما الإيرانية
تاريخ سياسي

حامد رضا صدر

يتضمّن «السينما الإيرانية ـ تاريخ سياسي» («المركز القومي للترجمة» ـ تعريب: أحمد يوسف) تحليلاً شاملاً للسينما الإيرانية، وللدور السياسي فيها. يعود الكاتب حامد رضا صدر إلى الأفلام الإيرانية منذ بداية القرن العشرين، محللاً ثيماتها وشخصيّاتها خصوصاً تلك المتعلّقة بالجوانب والخلفيات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. يتوقّف على صناعة الأفلام في مراحل تاريخية وتحوّلات معينة، وعلى اهتمامات السينما ومخرجيها.

تاريخ

سامي مبيّض: تفكيك الأيقونة الناصرية

خليل صويلح

«بسم الأمة»! هذه العبارة التي كان جمال عبد الناصر يفتتح بها قراراته المصيرية، أطاحت طمأنينة التجّار والصناعيين وملّاكي الأراضي السوريين خلال الوحدة بين سوريا ومصر. ذلك أنّ قرارات التأميم التي أصدرها بحق هؤلاء زعزعت استقرار وازدهار الاقتصاد السوري «بشطبة قلم» وفق ما يقوله سامي مروان مبيض في كتابه «عبد الناصر والتأميم: وقائع الانقلاب الاقتصادي في سورية» (دار رياض الريس للكتب- بيروت). معجزة الوحدة، كما هلّل لها السوريون بالهتافات والأغاني والشعارات الاشتراكية، كانت على الصعيد الاقتصادي بمثابة طعنة قاتلة، نظراً لغياب القراءة العقلانية للنسيج الاقتصادي السوري بالمقارنة مع الواقع المصري. لكن حماسة الاشتراكيين مثل أكرم الحوراني وحفنة من الضباط، بدت نوعاً من الانتقام حيال ملّاكي الأراضي، انتهت بإصدار «قانون الإصلاح الزراعي» بعد إعلان الوحدة بأشهر (1958)، بمصادرتها من ملّاكيها لمصلحة الفلاحين بوصفهم شركاء لا أجراء. على أن الزلزال الأكبر الذي أصاب الجسم الاقتصادي السوري أتى مع قانون التأميم (1961) الذي التهم المصانع والمصارف وشركات التأمين «تماشياً مع السياسة الاشتراكية العليا للجمهورية العربية المتحدة».

هكذا توجهت دوريات من الشرطة إلى كبرى المنشآت الاقتصادية في دمشق وبقية المدن السورية لتنفيذ قرار التأميم، على غرار ما حصل في «الإقليم الجنوبي» لدولة الوحدة «طُلب من مؤسسي تلك المصانع والبنوك إخلاء مكاتبهم بعد أخذ أوراقهم وأمتعتهم الشخصية وتسليم المفاتيح والدفاتر والأختام لمفوضين من وزارتي الاقتصاد والصناعة». لكن وصفة «العدالة الاجتماعية» التي أقنعت عبد الناصر بتنفيذها على يد بطانة سيئة، دون أن يتسنى له معرفة تفاصيلها وخصائصها، أدت في نهاية المطاف إلى «انهيارات متتالية في مفاصل الاقتصاد الوطني، واستبدل بهؤلاء الأثرياء أثرياء جدد صنعتهم الظروف السياسية في زمن الوحدة وما بعدها». يمضي المؤرخ الدمشقي في نبش وثائق تلك المرحلة من موقع مضاد، مفككاً الصورة الأيقونية عن مرحلة الوحدة بكشف مثالبها، كأنه يقوم بعملية تصفية حساب مؤجل مع «رجالات الوحدة» ثم الانفصال. فوفقاً للوقائع، لم ينفّذ الانفصاليون وعودهم بإلغاء قرارات التأميم، رغم اعتراضات بعض اقتصاديي تلك الفترة على هذه الممارسات الجائرة. يوضح مبيّض أن كتابه ليس نسفاً لوجهة النظر الأخرى التي ناصرت العمال والفلاحين، إنما محاولة للاقتراب من وجهة نظر الطرف الآخر، أصحاب المصانع والمصارف المؤممة، بقصد تحريض القارئ على التفكير في السياسات الاقتصادية والاجتماعية لدولة الوحدة، وأخطاء تلك المرحلة. كانت الذريعة التي اتكأ عليها قرار التأميم هي محاولة للجم تهريب أموال الصناعيين إلى لبنان والعيش من فوائد المصارف بدلاً من استخدام الأموال لتطوير معاملهم. وسيعترف الرئيس الأسبق أمين الحافظ لاحقاً بأن معظم المؤسسات والشركات المؤممة في عهده «لم تكن تستوفي شروط التأميم، فبعضها كان صغيراً لا يتعدى أن يكون ورشة أو دكاناً». وأضاف بأنه استند إلى دليل الهاتف لمعرفة أسماء الشركات القائمة يومها، فأمر بمصادرة كل مؤسسة كُتب إلى جانبها وصف «معمل». إخفاقات الوحدة لم تتوقّف على واجهتها الاقتصادية، وإنما كانت في هيمنة أجهزة الأمن والمخابرات المصرية على الأهالي وعلى أجهزة الدولة، وعلى الجيش، «ما ولّد لدى الضباط النقمة على الوحدة» حسب ما يقول عبد الله الخاني. ويروي صناعيون وتجّار في مقابلات أجراها معهم مؤلف الكتاب الضيم الذي لحق بهم جرّاء الممارسات الناصرية والخفّة التي تعامل بها عبد الحكيم عامر مع الواقع السوري، ما أدى إلى الانفصال، لتقع البلاد لاحقاً تحت سطوة الانقلابات العسكرية.

اختزل الرئيس شكري القوتلي موقفه من الحالة السورية في ظل الوحدة بقوله: «لقد كان في أساس الأخطاء كلها قاعدة واحدة: تأمين الأقلية وتخوين الأكثرية، وتسليط هيئات مصطنعة وأفراد على تنفيذ اشتراكية تعاونية لا يؤمنون بها، ولا يعملون من أجلها، ولا يفهمون أي مبدأ من مبادئ العدالة والتعاون» ولكن لماذا لم يلغ الانفصاليون قرارات التأميم؟ في الوقائع، حاول القائمون على «جمهورية الانفصال» إلغاء القرارات الاشتراكية، لكن الشارع الناصري السوري احتج على الإلغاء بتظاهرات حاشدة، ما دعا وزير الاقتصاد حينذاك عوض بركات للقول: «من يحكم البلد إذاً؟ نحن أم هؤلاء؟ أنا أعرف مزاج الناس جيداً، من غرف تجارية ومصارف ومصانع، جميعهم لا يريدون هذا الميكروب/ التأميم، في التشريع السوري». حاول السوريون ترميم العطب الذي أصاب الاقتصاد السوري بالتوفيق بين رغبة الشارع الناصري وأصحاب رؤوس الأموال السورية بمبادرة من رئيس الحكومة خالد العظم، لكنه لم ينجح في مساعيه، فقد أطاحته ومشروعه «مجموعة من الضباط الناصريين والبعثيين يوم 8 آذار 1963» بمصادرة أملاكه وتحويلها إلى مؤسسات عامة، كما ستصدر قرارات تأميم جديدة، أشمل وأوسع من قرارات عبد الناصر، وتجميد غرفة تجارة دمشق، ولم تُرفع القيود عن عمل التجّار إلى ما بعد 1970 وإشراكهم في عضوية مجلس الشعب كنوع من رد الاعتبار لرمزية سوق الحميدية. يضيء سامي مبيض في فصولٍ لاحقة على الحياة المصرفية قبل التأميم وأبرز البنوك التي كانت تعمل في البلاد، بالإضافة إلى تفاصيل قانون الإصلاح الزراعي ودور أكرم الحوراني في تفعيل هذا القانون لمكاسب حزبية في المقام الأول. وقد وصف نجيب الريس في افتتاحيته في جريدة «القبس» تصرفات الحوراني الثورية بقوله: «أرض عاطلة من الإنتاج، وفلاحون عاطلون من العمل». ليست قرارات التأميم، وقانون الإصلاح الزراعي كارثة اقتصادية فحسب، وإنما أيضاً سياسية، أدت إلى هيمنة العسكر على مقدرات البلاد، انقلاباً إثر آخر بشعارات ثورية جوفاء. إماطة اللثام عن هذه المرحلة العاصفة والمضطربة باعتماد الوثائق والصور الأرشيفية، عدها بعضهم، إثر صدور الكتاب، محاولة ثأرية من المؤرخ الدمشقي الذي ينتسب إلى عائلة تجارية كان لها حضورها في المشهد الاقتصادي قبل قرار التأميم، وتصفية حساب مع المرحلة الناصرية، رغم نفيه مثل هذه الاتهامات، مبرراً عمله بأنه «ليس انحيازاً بقدر ما هو انتقاد. نقد لوحدة، كل من عاشها تمنّاها أفضل، وليس من المجحف بحق الوحدة تسليط الضوء على أخطائها».

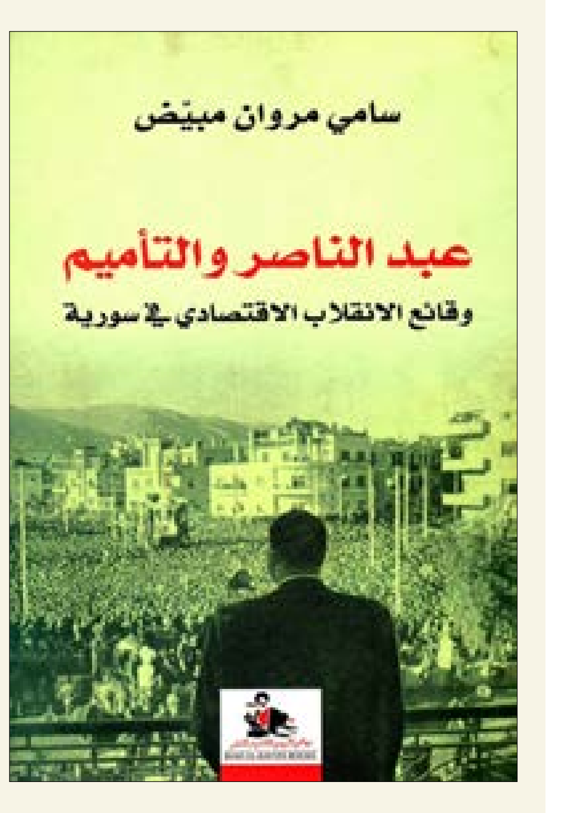

اعتبر بعضهم الكتاب محاولة ثأرية من المؤرخ الذي ينتسب إلى عائلة تجارية

رواية

«أولاد شارع بَال»... الأوطان الخادعة

سومر شحادة

يحاكي الهنغاري فرنتس مولنار (1878 ـ 1952) في روايته «أولاد شارع بَال» الصادرة عام 1906، عالماً مثالياً وأخلاقياً، ويأخذ العراك الذي يحدث بين مجموعتين من الصبية مسار الحروب النموذجية... لتكون رواية الفتيان الشهيرة درساً في القيم لا في فنون الخديعة. صدرت الرواية بالعربية أخيراً (دار فواصل. ترجمة نافع معلا) لتعرض مجموعة من الأمثولات، ينقسم العالم فيها إلى أخيار وأشرار. إلا أنّ الفريقين يجتمعان على النزاهة، ما يجعل من صراعهما صراعاً يجد القارئ نفسهُ يهتف للجميع فيهِ. يُقرأ النص على نحو رمزي. إذ إنّ قطعة الأرض التي تنشب عليها المعركة تمثل أوطاناً حريٌّ بالصبية الزود عنها. وطالما أنّ الكاتب قد وضع الفريقين المتقابلين على جانب واحدٍ من النزاهة، فإنّ حصيلة معاركهما تقارع الطبيعة والفتن والأخطار والقوى الكبرى. «أولاد شارع بَال»، مثال لتلك الحكايات المغلقة والمحددة المصائر، التي تغتني بالعبرة وتقدم المغزى لقارئها. إذ إنّ تلك الأوطان التي يدافع عنها هؤلاء الصبية، ويموت بسببها أكثرهم شجاعة، تذهب في النهاية ضمن صفقات عبثية وقدرية. يذكر قارئ ما وطناً ضائعاً وهو يتأمل هذا النص المؤثر عن قطعة الأرض التي يريد الأطفال اللعب بها. يتعاركون ويخسرون بعضهم البعض، يحيكون المؤامرات ويكيدون الدسائس، يعرفون لحظات شجاعة كثيرة، لحظات شك وخيانة، مواقف خسّة، انفعالات عاطفية وتشبّثاً عقلانياً... أطفال نبيلون ومغامرون يخوضون في كلّ مفردات المعارك التي يعرفها الكبار. ثمّ أمام العمال الذين سيبنون الخرابة، ينتهي كلّ شيء على هيئة درس قاس، بموت صديقهم وخسارتهم الأرض التي تصنع طفولتهم. وبإنجاز هذه الطفولة المشاكسة والمؤلمة في آن، كانوا يغادرونها إلى عالم الكبار.

تنذر المعركة بالبدء بين الفريقين بعدما استولى الأخوان الراعي على الدحل الخاص بـ «نمتشك»، وهو طفل هزيل، لا يحسب له أحد حساباً. يصوره الكاتب منذ البداية في موقع «صالح للفداء»، عدا عن كونهِ الجندي الوحيد في الجيش المؤلف من الضباط، ليصنع «نمتشك» الأحداث الحاسمة في النص برمتهِ. يجتمع أعضاء فريق العلم الأحمر والأخضر وينتخبون «بوكا» رئيساً «تام السلطات». يعرفون أنّ «آتش» قائد فريق أصحاب القمصان الحمراء، قد جاء إلى الخرابة وانتزع العلم الخاص بهم. و«نمتشك» ذلك الجندي الوحيد، هو الذي رآه، فيما راحوا يهتفون «عاشت الخرابة» إثر الانتخابات كما لو كانوا يهتفون «عاش الوطن»، وفي أذهانهم التهديد المتكرر الذي يحدق بالخرابة، وهي أرض مهجورة في جوار شارع بَال، بمثابة أرض الأحلام لأبناء المدن. يتسلل أعضاء من فريق العلم الأحمر والأخضر إلى الحقلة، حيث مقر أصحاب القمصان الحمراء، ويتركون إشارة على عبورهم أرض خصومهم في رد اعتبار لسرقة العلم وكسر السارية. إلا أنّ بوكا يرفض اقتراح تشونكوش بأخذ فؤوس الخصوم على أنها غنائم حرب، إذ يعتبر بوكا ذلك «لصوصية». تثمر عملية التسلل عن معرفة خيانة صديقهم «غريب» لهم، وعن المعرفة الأكيدة بأنّ أصحاب القمصان الحمر يحضرون للحرب والاستيلاء على الخرابة كي تكون ملعب كرة خاصاً بهم. وبهذا حددوا أهدافهم من تلك الحرب. يستحضر الكاتب الحرب لا بالمفردات وحسب وإنّما بالأجواء التي يهتم بتصويرها على نحو دقيق وتفصيلي؛ حيث الترقب والخوف والحذر والأفكار الكبيرة التي تراود الفتيان مثل شعار فريق جمع المعاجين في بودابست «نقسم أنّنا لن نكون عبيداً بعد الآن». حتى إنّ الخرابة ذاتها، لم تكن تمثل لهم مجرد أرض خالية بين بنائين، وإنّما كانت تمثل «اللامحدود» مقابل عالمهم الضيق في المدرسة وفي البيت، أمام المعلم والأهل. تتالى الأحداث التي تجعل من اقتراب المعركة بين الفريقين اقتراباً عاصفاً، لا يتوقف فيهِ بوكا عند تقديم دور القائد المنضبط والمثالي والطموح، ولا يتوقف فيهِ نمتشك عن تقديم دور الجندي المضحي والباسل. يحاول آتش مع فريقهِ مجاراة تلك الروح العالية لدى خصومهم. وما أن ينكشف أمر خيانة «غريب» حتى ينبذه الجميع، ويلتئم إلى فريقهِ مجدداً بفضل بسالة نمتشك وحسّه العالي والشجاع. على الرغم من تعرض نمتشك للكثير من المواقف التي تدفع المهانة إليهِ، إلا أنّه بقي ذلك الجندي الذي لا يمّسه السوء متسلحاً بكرامة ناصعة. عندما تبدأ المعركة المنتظرة، يصنع نمتشك الانتصار، يغالب مرضهُ جراء اضطراره للاختباء في حوض الأسماك في واحدة من مهماتهِ. يضع الكاتب القادة بوكا وآتش متقابلين، إذ بمرض نمتشك الشديد وموته، ننتبه إلى حقيقة شعور بوكا الذي «لا يفرحه أنّه قائد منتصر» أمام موت جنديّه. وفي المقابل، نجد آتش القائد الذي خسر أمام الجندي، حائماً حول منزل نمتشك، كما لو أنّه بالخسارة أمام الجندي قد عرف معنى الكرامة. على الرغم من أنّ فرنتس مولنار قد قدم رواية فتيان في نطاق الخرابة والصراعات عليها، إلا أنّ سرده يتكشف عن مفارقات عدة كانت تشهدها المجر. بينما يخيط والد نمتشك المعطف كي يصنع بثمنه تابوتاً لابنهِ، راح يتخيل صاحب المعطف وهو يتنزه به على شاطئ الدانوب، ليتضح أنّ أفكار أولاد شارع بال في الحرية والتمرد هي رفض لواقع آبائهم وحلم بتغييره.

فرنتس مولنار
أولاد شارع بَال
ترجمة: نافع معلا

مثال لتلك الحكايات المغلقة والمحددة المصائر التي تغتني بالعبرة